

الرؤية الصوفية في ديوان " أحلام الفارس القديم" لصلاح عبد الصبور

MYSTICAL VISION IN DIWAN OF :« DREAM: OF OLD KNIGHT» OF SALAH ABDESSABOUR

سامية راجح

جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)، samia.radjah@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2020/02/09 تاريخ القبول: 2020/02/14 تاريخ النشر: 2020/07/29

Abstract: We had in this article the most important mystical visions of salah abdessabour though our preoccupation on diwan of "dream of old knight". And those visions has embodied in the withdrawal from life and conflict between perfection and reality and insight and mystical introspection, and feeling of alienation and anxiety and loss. Salah Abdessabour has exceeded his visible reality dreaming a perfect reality erased throught it the interval between modernity experience and the mystical experience.

Keywords: modernist , vision ,Sufi , experience, retreating.

المخلص: تناولنا في هذا المقال أهم الرؤى الصوفية " لصلاح عبد الصبور" خلال اشتغالنا على ديوان: "أحلام الفارس القديم"، وقد تظهت تلك الرؤى في الانسحاب من الحياة والصراع بين المثال والواقع والتبصر والاستبطان الصوفي، والإحساس بالغرابة والقلق والضياح.وقد تجاوز صلاح عبد الصبور واقعه المرئي، حالما بواقع مثالي انمحت من خلاله الفواصل بين التجربة الشعرية الحداثية والتجربة الصوفية. **الكلمات المفتاحية:** الحداثة، الرؤية، الصوفية، التجربة، الانسحاب.

المؤلف المرسل: سامية راجح، الإيميل:

samia.radjah@univ-biskra.dz

سامية راجح

يمثل الإحساس بضيق الرؤيا مشكلة أساسية للإنسان المعاصر ولا تتسع رؤيته إلا إذا تجاوز ما وراء أفقه الإنساني، وقد وجد في الرؤيا الصوفية وسيلة للانسحاب من هذه الحياة المملة المليئة بالتناقضات، أو هذا الوجود الظاهري الزائل، ولماذا لا ينسحب الإنسان المعاصر من هذه الحياة وهو يحس تفاهته وإحباطه وانهزامه وهذه الأشياء نفسها كانت بواعث الشعراء الصوفيين أمثال "صلاح عبد الصبور". الذي تميز بنزعة صوفية رمزية تحاول الاتصال بالمجهول عن طريق الحواس.

ولاشك أن الرمزيين استهوتهم فكرة الانسحاب من الحياة، لأنهم نظروا إلى الوجود نظرة صوفية تؤمن بوجود عالم نموذج مثالي أكثر واقعية من عالم الحس، وفكرة الانسحاب من الحياة نجدها في قصائد كثيرة لشعرائنا المعاصرين، ولعل قصيدة "صلاح عبد الصبور": (مذكرات الصوفي بشر الحافي) من أهم القصائد دلالة على النزعة الصوفية (هدارة، صفحة 112).

يقول صلاح عبد الصبور في قصيدة: "الإبحار في الذاكرة"

أتأهب للميعاد- الرحلة - في آخر كل مساء

أتقرى أورادي

أتزيا شاراتي

في أهداب الغيم أنشر أشرعتي

أتلقي في صفحتها نذر الريح ...

نبوءات الأنباء (زكي، صفحة 102)

لقد نجح "صلاح عبد الصبور" في إقامة أو إنشاء علاقات تصويرية أو تعبيرية مجازية صوفية استغل فيها عناصر الطبيعة وعناصر صوفية ك: (الرحلة- الميعاد- المساء- أتقرى أورادي- أتزيا شاراتي- أهداب الغيم- نذر الريح ...) على أساس أن الشعر ذاته

الرؤية الصوفية في ديوان "أحلام الفارس القديم" لصلاح عبد الصبور

تعبير عن جوهر الذات، عن الحقيقة عن الإنسان، أو هو يشكل مع تلك الذات وحدة صوفية تكبح جماح المنطق والنموذج بوجه عام (زكي، صفحة 102)

ويقول أيضا:

البحارة يصطبخون
الملاحون، الفئران، التذكارات، المحبوسون
في أوردة المركب يضطربون.
وأخوض رماد الآفاق ...
إلى جزر المعلوم المجهول الدكناء.

ينكشف تحتي موج الموح وتمضي بي الريح رخاء (زكي، صفحة 103)

لقد ظل شاعرنا يعيش في غربة نفسية عاصفة سنوات طوال، أخذ خلالها يطوف في آفاق المعرفة بحثا عن ذاته التي أنهكها الظمأ، وظل أمدا طويلا يبحث عن أعماقه عن طريق الخلاص حتى أدركه متماثلا في عالم الآفاق والروح والمثل والمجهول والحقائق الخالدة، ففي التصوف وجد حقيقته وشاهد ذاته (عيسى، تجليات الشعرية، قراءة في الشعر المعاصر، ط1، صفحة 287) في إظهارها العام وليس فيما يفرضه الواقع المرير، إذن هو في سبيل إحدى الحالات المعرفية، وقد حملته الريح إلى إقليم جديد من أقاليم النفس.

ثم يقول:

في آخر أعقاب الليل
تأثيني نذر الريح
تنقر في شاراتي الأمواج ... العقبان
يتقاذف مراساتي صخب القيعان
يصعقتني من خلف الدجن

سامية راجح

صوت يتردد جياش الأصداء

قدم قربانك للبحر الغضبان

قدم قربان (زكي، صفحة 103)

تصور هذه الأسطر الشعرية بداية دخول الشاعر إلى هذا العالم الروحاني الجديد، وقد جاءت لتشير إلى قرب انتهاء معاناة الشاعر الروحية وتخلصه من قلق النفس وعذاب الروح، ونراه يصطنع فيها طريقة شعراء الصوفية في الرمز والتصوير «وقد لجأ شعراء التصوف إلى طريقة الرمز لأنهم أحسوا أن لغة العموم لاتفي بالتعبير عن معاناتهم وما يحسونه في أذواقهم ومواجدهم، ولإدراكهم أن حقائق العلم الباطن لا يستقل بفهمها عقل، ولا بالتعبير عنها لغة» (عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، 1979، الصفحات 284-285)، هذه اللغة التي تتراءى خلفها معالم الثورة الروحية واضحة وجلية للوصول إلى الحقيقة التي لا يصل عتباتها إلا من عرفوا السفر والمجاهدة والمكابدة.

لقد طالت رحلة الشاعر في البحث عن الحقيقة، وكانت الطريق شاقة محفوفة بالمخاطر والآلام والرياح، وظلت عواطف الشك وأعاصير الأسى تتلاعب بسفينة حياته وهذا يعني أن الشاعر لن يظفر باليقين الكلي كغيره من الشعراء المتصوفة أمثال: خليل حاوي، السياب، أدونيس.

ومهما يكن من شيء فإنه لا يبدو أمام المسافر مع الأمواج ليلا وقد داهمته العواصف إلا أن يقدم قربانا للبحر، ولن يكون هذا القربان إلا قربانا بشريا، لأنه بشارة بالوحدة الصوفية، وبالفكر المتأمل في الكون ويقول أيضا:

يا رحلة المعنى على خلدي

قري بجدي عانقي عدمي (زكي، صفحة 104)

الرؤية الصوفية في ديوان "أحلام الفارس القديم" لصلاح عبد الصبور

والرحلة عند صلاح عبد الصبور أمر مستمر ومحكوم بالوجد الصوفي غالباً، فهو يشعر أنه يعيش في حالة من الارتحال الدائم، لأنه يعوج من مرحلة إلى أخرى بحثاً عن لذة المعرفة والحقيقة، ولذلك تتردد في شعره صور السندباد، كما تتردد صورة السفينة، وصورة الرحلة، وصورة الليل، البحر، الأمواج، الميعاد، الريح، السفر، الضمأ، الشوق.

إن فكرة الانسحاب من الحياة ومن الوجود الظاهري نجدها في قصائد عديدة لصلاح عبد الصبور، ولعل قصيدة "مذكرات الصوفي بشر الحافي" من ديوان أحلام الفارس القديم من أهم القصائد دلالة على تلك الفكرة الصوفية (هدارة، صفحة 112)

يقول صلاح عبد الصبور:

حين فقدنا الرضا

بما يريد القضا

لم تنزل الأمطار

لم تورق الأشجار

ولأتاك لا تدري معنى الألفاظ

تعالى الله هذا الكون

لا يصلحه شيء

فأين الموت أين الموت أين الموت (الصبور، 1986، صفحة 113)

إن الواقع بتناقضاته ينعكس بقوة على ذات الشاعر فيقلب بين الإحباط واليأس، وتتنوع أحاسيسه بين الأمل والإحباط ويتضح ذلك في التراكيب الآتية (لم تنزل، لم تورق، لا تدري، لا يصلح شيء، أين الموت...)

هكذا كانت مذكرات "بشر الحافي" إدانة كاملة ودامغة للإنسان والوجود، إنها رؤية صوفية تنظر إلى الواقع المتناقض، وتريد أن تتجاوز إلى الأفق النوراني الأعلى إنها تتسحب من الوجود الذي ينضح بالخزي والعار، ويتحول فيه الإنسان إلى رموز حيوانية مادية.

سامية راجح

إن هذه الرؤية إسقاط للماضي على الحاضر، وليس بعجيب أن تمحي فوارق الزمان، إنها إذن مذكرات "بشر عبد الصبور"، لا فرق بين شيء، فالزمن واحد والإنسان واحد، وهو صراع أبدي بين المثال والواقع

بالإضافة إلى فكرة الانسحاب من الواقع المادي نجد ظاهرة أخرى تميز بها شعر صلاح عبد الصبور وهي ظاهرة -التبصر والاستبطان الصوفي-، ولعل قصيدة "الإله الصغير" تكشف لنا أبعاد هذه الظاهرة الصوفية
يقول الشاعر:

كان لي يوما إله وملاذي كان بيته
قال لي إن طريق الورد وعر فارثقيه
وتلفت ورائي وورائي ما وجدته

ثم أصغيت لصوت الريح تبكي فبكيته (الصبور، 1986، صفحة 113)

لقد وجد الشاعر صلاح عبد الصبور في أجواء التصوف بما ينطوي عليه من شفافية وتجرد وسمو روحاني ملاذا يأوي إليه ويلوذ بكنفه هروبا من هذا العالم المادي، الذي يصطخب بصراعاته ويموج بالعنف والدمار والأهوال. وتتوارى فيه كثيرا من القيم المثالية، مما يصيب الذات الضالمة إلى العالم المثالي بالإحباط، ويدفعها إلى البحث عن طريق التبصر العميق للخلاص من هذا الطوفان المادي (عيسى، تجليات الشعرية، قراءة في الشعر المعاصر، ط1، صفحة 283)

إن المرئيات أو الظواهر الحسية في هذه الأسطر الشعرية تأخذ شكلا جديدا ينبع من نفس الشاعر: (طريق، الورد، الريح، الصحراء، الطفل...)، إنها ليست المرئيات أو الظواهر المحسوسة والمألوفة، إنها تجربة روحية مكثفة، فالريح والورد وغيرها من المرئيات الموظفة في قصائد صلاح عبد الصبور ليست تلك الأشياء التي نعرفها ولكن ينبغي للمتلقي أن يغوص

الرؤية الصوفية في ديوان "أحلام الفارس القديم" لصلاح عبد الصبور

في أعماق نفسه ويحاول أن يتمثل التجربة الصوفية للوصول إلى الدلالات الحقيقية، التي تكمن وراء هذه المرئيات التي حولتها بصيرة وتبصر الشاعر إلى إحساسات وإبداعات شعرية. كما تكشف تجربته الشعرية الإبداعية عن قدرة الشاعر على الغوص أو النفاذ أو الدخول إلى أعماق النفس البشرية، وهو نوع من الاستبطان الواعي للأشياء، وخاصة التأمل هذه جزء أصيل في التجربة الصوفية.

يقول صلاح عبد الصبور في قصيدته: "أغنية إلى الله"

لينتثر فتات لحمنا على جناح عيشنا الغريب

ولنغترب في قفاز العمر والسهوب.

وللنكسر في كل يوم مرتين

الله يا وحدتي المغلقة الأبواب

الله لو منحتني الصفاء

الله لو جلست في ظلالك الوارقة اللفاء

حين تصير الرغبات أمنيات.

لأنها بعيدة المطال في السما

ثم تصير الأمنيات وهما

لأنها تقنعت بالغيم والضباب

وهاجرت مع السحاب (الصبور، 1986، صفحة 117)

إن "صلاح عبد الصبور" من أهم الشعراء المعاصرين الذين تنتضح رؤاهم بهذه المعاناة النفسية والإحساس بالغربة، وتمتدح هذه المعاناة ، بالقلق والرفض والغضب والتوتر والحزن والخوف والسأم والرغبة في إدراك المجهول الذي يحقق الإنعتاق من كل أحاسيس الغربة والضياع ، ونحس كل هذه المعاني والنبضات في قصيدته: "أغنية إلى الله"، إذن النزعة

سامية راجح

الصوفية عند "صلاح عبد الصبور" تتنوع بين الإحساس العنيف بالغبرة والقلق في هذا العالم الواقعي.

فالصوفي ومن خصائص تجربته لا تهدأ فيها نفسه المتشوقة إلى الخلاص من سجن المادة والزمن، إنه في بحث وتوق دائم إلى الاتحاد بالله وبالتسامي والانعتاق من واقعه، وكذلك يبدو الشاعر المعاصر الذي ينزع منزع المتصوفة، حيث يستبد به القلق وتتحمل روحه المعذبة المعاناة في سبيل المجهول الذي ينتظره وهو ذاهل عن الزمن في تلك المعاناة (هدارة، صفحة 11).

هكذا يهيمن الإحساس بالغبرة في قصيدة: "أغنية إلى الله"، فتتفجر براكين الغضب والرفض والحزن لتتحول هذه المشاعر والإحساس من طابعها العادي إلى مشاعر صوفية تمتزج فيها الحياة والموت والانبعاث، ويقترن الشك باليقين، والحلم بالوحدة، والحقيقة بالوهم، والجمود بالحركة، ونتيجة للقلق والرفض والخوف واليأس وتلك الغربة والإحساس بالضياح في العالم الواقعي، وما فيه من قيم متضاربة يحدث الرفض والثورة والتحدي لهذا العالم وما فيه من متناقضات، وعلى هذا النحو استطاع "صلاح عبد الصبور" أن يتمثل تجربة التصوف، ويصوغها صياغة عصرية متجددة، فالنزعة الصوفية بمعناها الإنساني ذات أثر واضح في شعر صلاح عبد الصبور من جوانب شتى، وهي تحتاج إلى تتبع دقيق وعميق لا يكتفي بظواهر الأشياء.

إن اتخذ "صلاح عبد الصبور" نماذج بشرية صوفية رموزاً له مثل: "بشر الحافي"، محي الدين، ابن عربي، الحلاج"، حيث استطاع من خلال رؤيته الصوفية التعبير عن فكرة انسحابه من الحياة، مبرزاً روحاً صوفية ماثلة في الصراع بين الواقع والمثال، وإحساساً مفعماً بالقلق والضياح.

الرؤية الصوفية في ديوان "أحلام الفارس القديم" لصلاح عبد الصبور

-قائمة المراجع:

- أحمد كمال زكي. (بلا تاريخ). التفسير الأسطوري للشعر الحديث. مجلة فصول، ع4، م1، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- صلاح عبد الصبور. (1986). ديوان أحلام الفارس القديم، ط5. دار الشروق.
- فوزي عيسى. (1979). الشعر الأندلسي في عصر الموحدين. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- فوزي عيسى. تجليات الشعرية، قراءة في الشعر المعاصر، ط1. الإسكندرية- مصر: دار المعارف للنشر .
- محمد مصطفى هدارة. (بلا تاريخ). النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث. مجلة فصول، ع4، م1، الهيئة المصرية العامة للكتاب .